المجموعة التاريخية للصغار

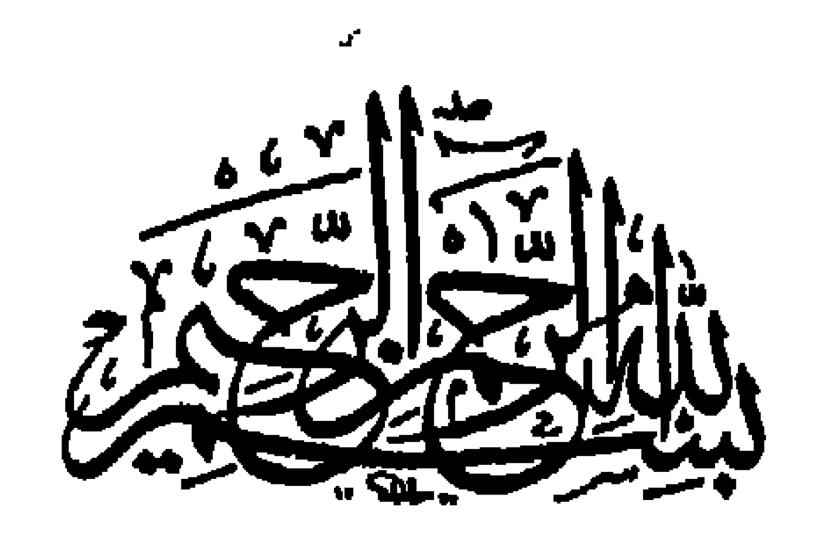
عجائب رحلة ابن بطوطة

النّارُ والأفاعي



إعداد
عبدالقادر محمد مايو

مراجعة
أحمد عبدالله فرهود



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

مضبوطة ومشكولة

1423 هـ - 2003 م

عنوان الدار :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي ص.ب :78

هاتف : 2213129 / 2269599 فاكس : 2212361 21 963+

email : qalamrab@scs-net.org

النَّارُ وَالأَفَاعِي

فِي اللَيْلَةِ التَّالِيَةِ لِلَيْلَةِ حَدِيثِ أَبِي غُرَّةَ المَغْرُورِ أَبِي الطُّبُولِ ، اجْتَمَعَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ بِنَدِيمِهِ وَمُحَدِّثِهِ ابْنِ بَطُّوطَةَ وَمَعَهُمَا الكَاتِبُ البَارِعُ الحَصِيفُ ابْنُ جُزِّيٍّ فَالْتَفَتَ هَذَا إِلَىٰ السُّلْطَانِ قَائِلاً :

ـ هَلْ يَأْذَنُ لِي مَوْلايَ السُّلْطَانُ بِأَنْ أُصَارِحَ أَخِي الرَّحَّالَةَ ابْنَ بَطُّوطَة بِجَانِبٍ مِنَ التَّقْصِيرِ وَقَعَ فِيهِ دُونَ أَنْ يَدْرِيَ أَوْ لَعَلَّهُ يَدْرِي ، فَالمُصِيبَةُ أَعْظَمُ عَلَىٰ قَوْلِ الشَّاعِرِ :

إِذَا كُنْتَ لا تَدْرِي فَتِلْكَ مُصِيبَةٌ   وَإِنْ كُنْتَ تَدْرِي فَالمُصِيبَةُ أَعْظَمُ

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ وَقَدْ فَاجَأَهُ اتِّهَامُ صَاحِبِهِ الكَاتِبِ ابْنِ جُزِّيٍّ لَهُ بِالتَّقْصِيرِ ، وَوَدَّ أَنْ يَدْفَعَ عَنْهُ التُّهْمَةَ المَزْعُومَةَ وَلا سِيَّمَا أَمَامَ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ الذي لَمْ يُبْدِ رَأْياً فِي حَدِيثِ ابْنِ بَطُّوطَةَ سِوَىٰ الإِشَادَةِ وَالاسْتِحْسَانِ :

ـ مَا هَذَا التَّقْصِيرُ الذِي تَدَّعِيهِ فِي حِكَايَاتِي ،وَقَدْ بَلَغَتْ بِضْعَ عَشْرَةَ حِكَايةً حَظِيَتْ كُلُّهَا بِإِعْجَابِ مَوْلايَ السُّلْطَانِ وَاسْتِحْسَانِهِ ، أَفِدْنِي أَفَادَكَ اللهُ . .

أَجَابَ ابْنُ جُزَيٍّ مُسْتَأْذِناً مَوْلاهُ السُّلْطَانَ :

ـ أَرْجُو أَنْ تَتَقَبَّلَ رَأْيِي فِيمَا تَقُصُّهُ عَلَيْنَا بِصَدْرٍ رَحْبٍ وَأَنَا لا أُنْكِرُ أَنَّكَ حَدَّثْتَ فَأَمْتَعْتَ . .إِنَّكَ يَا أَخِي ، يَا بْنَ بَطُّوطَةَ ،تَخْتَارُ مِنَ الأَحْدَاثِ وَ الوَقَائِعِ أَعْجَبَهَا وَ أَغْرَبَهَا وَ أَطْرَفَهَا ،وَ تَنْسَىٰ أَنَّنَا نُدَوِّنُ بِأَمْرِ مَوْلانَا السُّلْطَانِ مَا يَنْفَعُ مِنْ عُلُومِ الأَرَضِينَ وَ البُلْدَانِ ، وَتَارِيخِ الأُمَمِ وَ الشُّعُوبِ لِيَكُونَ ذُخْراً لِلأَجْيَالِ القَادِمَةِ مِنْ بَعْدِنَا ،لا مُجَرَّدَ حِكَايَاتٍ لِلتَّسَالِي وَالمُسَامَرَةِ . .

هُنَا تَدَخَّلَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ فِي رَأْيِ كَاتِبِهِ ابْنِ جُزَيٍّ قَائِلاً :

ـ الحَقُّ أَنَّنِي أَنَا مَنْ وَجَّهْتُ ابْنَ بَطُّوطَةَ لِرِوَايَةِ العَجَائِبِ وَ الغَرَائِبِ وَ الطَّرَائِفِ وَأَنْ يَخْتَارَهَا لإِعْمَارِ مَجَالِسِنَا أَحْسَنَ اخْتِيارٍ ، وَقَدْ فَعَلَ وَلَمْ يُقَصِّرْ أَيَّ تَقْصِيرٍ . .

قَالَ ابْنُ جُزِّيٍّ كَاتِبُ السُّلْطَانِ :

ـ عَفْوَ مَوْلايَ ! هَلْ لِمُحَدِّثِنَا الرَّحَّالَةِ ابْنِ بَطُّوطَةَ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ مَقْصِدَيْ العِلْمِ وَالتَّسْلِيَةِ ، وَأَنْ يَسْتَدْرِكَ عَلَىٰ نَفْسِهِ مَافَاتَهُ مِنْ خَبَرِ البُلْدَانِ وَالأَقْوَامِ فِي طَرِيقِهِ إِلَىٰ العِرَاقِ بَعْدَ انْفِصَالِهِ عَنْ مَكَّةَ المُكَرَّمَةَ ؟ فَقَدْ وَصَلَ بِنَا إِلَىٰ الهِنْدِ بِخَبَرِ أَبِي غُرَّةَ المَغْرُورِ ، قَبْلَ أَنْ يُحَدِّثَنَا بِمَا رَآهُ فِي نَجْدٍ وَالكُوفَةِ وَوَاسِطِ وَالنَّجَفِ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ فَلْيَتَحَدَّثْ بِمَا يَتَحَدَّثُ ، وَلَكِنْ دَعْهُ لا يَحْرِمْنَا مِنْ رِوَايَةِ العَجَائِبِ وَالغَرَائِبِ وَالطَّرَائِفِ ، فَبِهَا نَتَسَلَّىٰ وَتَطِيبُ المُنَادَمَةُ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةُ :

ـ سَأَجْمَعُ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَلَكِنَّ غَايَتِي وَ أَقْصَىٰ مُنَايَ أَنْ يَرْضَىٰ عَنِّي مَوْلايَ السُّلْطَانُ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ حَدِّثْنَا يَا أَبَا عَبْدِ الله ، فَأَنَا عَنْكَ رَاضٍ . .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ أَشْكُرُكَ يَا سَيِّدِي شُكْراً يَلِيقُ بِخَاطِرِكَ ، وَهَأَنَذَا أَعُودُ بِأَدْرَاجِي إِلَىٰ مَشَارِفِ مَكَّةَ مُنْذُ انْفَصَلْتُ عَنْهَا حَتَّىٰ بَلَغْتُ الحَلَّةَ وَالنَّجَفَ وَرَأَيْتُ فِي وَاسِطٍ مِنْ مُدُنِ العِرَاقِ أُعْجُوبَةَ الرَّقْصِ فِي النَّارِ . . وَغَيْرَهَا مِمَّا هُوَ أَعْجَبُ .

خَرَجْنَا مِنْ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ بَعْدَ طَوَافِ الوَدَاعِ لِلكَعْبَةِ المُشَرَّفَةِ ، وَكُنْتُ مَعَ الرَّكْبِ العِرَاقِيِّ ، وَفِي هَذَا الرَّكْبِ نَوَاضِحُ كَثِيرَةٌ لأَبْنَاءِ السَّبِيلِ ، وَجِمَالٌ تَحْمِلُ الصَّدَقَاتِ وَالأَدْوِيَةَ وَالأَشْرِبَةَ لِمَنْ يُصِيبُهُ مَرَضٌ . . وَإِذَا نَزَلَ الرَّكْبُ طُبِخَ الطَّعَامُ فِي قُدُورِ نُحَاسٍ عَظِيمَةٍ تُسَمَّىٰ الدُّسُوتَ ، وَأُطْعِمَ مِنْهَا أَبْنَاءُ السَّبِيلِ وَمَنْ لا زَادَ مَعَهُ .

بَلَغْنَا بَطْنَ مَرٍّ ثُمَّ رَحَلْنَا مِنْهُ إِلَىٰ عُسْفَانَ ثُمَّ إِلَىٰ خُلَيْصٍ وَنَزَلْنَا بَعْدَهَا وَادِيَ السَّمَكِ ، ثُمَّ نَزَلْنَا فِي بَدْرٍ مَوْضِعِ المَعْرَكَةِ الظَّافِرَةِ الأُولَىٰ مِنْ مَعَارِكِ الإِسْلامِ ضِدَّ الشِّرْكِ وَالكُفْرِ ، وَمِنْ بَدْرٍ إِلَىٰ الصَّفْرَاءِ وَمِنَ الصَّفْرَاءِ ، إِلَىٰ طَيْبَةَ مَدِينَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ . وَتَشَرَّفْتُ بِزِيَارَةِ رَسُولِ اللهِ مَرَّةً

ثَانيةً بَعْدَ المَرَّةِ الأُولَىٰ التِي كَانَتْ فِي طَرِيقِ القُدُومِ .

وَبَعْدَ سِتَّةِ أَيَّامٍ مِنَ الإقَامَةِ بِالمَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ تَزَوَّدْنَا مِنْهَا بِالمَاءِ ، وَرَحَلْنَا عَنْهَا فَنَزَلْنَا بِوَادِي العَرُوسِ مُجْتَازِينَ إِلَىٰ هَضْبَةِ نَجْدٍ ، فَإِذَا بَسِيطٌ مِنَ الأَرْضِ عَلَىٰ مَدِّ البَصَرِ ذُو نَسِيمٍ طَيِّبٍ وَأَرِيجٍ ، وَنَزَلْنَا بَعْدَ أَرْبَعِ مَرَاحِلَ عَلَىٰ مَاءٍ يُعْرَفُ بِالعُسَيْلَةِ وَمِنْهُ إِلَىٰ النَّقْرَةِ ، فَالقَارُورَةِ ، حَيْثُ سُبُلُ مَاءٍ صَنَعَتْهَا وَأَوْقَفَتْهَا زُبَيْدَةُ بِنْتُ جَعْفَرَ رَحِمَهَا الله .وَهَذَا المَوْضِعُ هُوَ وَسَطَ نَجْدٍ ، وَهُوَ فَسِيحٌ ، طَيِّبُ النَّسِيمِ ، صَحِيحُ الهَوَاءِ ، نَقِيُّ التُّرْبَةِ ، مُعْتَدِلٌ فِي كُلِّ الفُصُولِ ، وَمِنَ القَارُورَةِ إِلَىٰ الحَاجِرِ ، وَأَرْضِ سَمِيرَةَ ، وَهِيَ أَرْضٌ غَائِرَةٌ ، مَاؤهَا لا يَصْلُحُ لِلشُّرْبِ ، يَأْتِيهَا عَرَبُ البَادِيَةِ يَبِيعُونَ اللبَنَ وَالسَّمْنَ لِلحُجَّاجِ بِالثِّيَابِ الخَامِ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ وَقَدْ ضَاقَ ذَرْعاً بِذِكْرِ صِغَارِ البُلْدَانِ وَالمَوَاضِعِ .

ـ يَا أَبَا عَبْدِ الله ، يَا بْنَ بَطُّوطَةَ ، بِحَسْبِكَ أَنْ تُحَدِّثَنَا عَنْ مَوَاضِعِ النُّزُولِ وَالارْتِحَالِ تَعْدَاداً كَمَا مَرَرْتُمْ بِهَا مُرُورَ الكِرَامِ . . وَلا تُفَصِّلْ إِلاَّ

لَدَىٰ بُلُوغِ عَاصِمَةٍ مِنَ العَوَاصِمِ أَوْ حُدُوثِ وَاقِعَةٍ عَجِيبَةٍ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ المُتَحَدِّثُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ أَفْعَلُ مَا يَرْتَضِيهِ مَوْلايَ ، وَمَا يُرْضِي الحَقِيقَةَ وَالتَّارِيخَ بِإِذْنِ الله تَعَالَىٰ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ بُورِكَ فِيكَ . . عَجِّلْ عَلَيْنَا بِمَا حَصَلَ لَكَ مِنَ العَجَائِبِ أَوْ بِمَا شَاهَدْتَ عِيَاناً . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ أَنَا فِي طَرِيقِي لإِطْرَافِ مَوْلايَ بِأَعْجَبِ العَجَائِبِ مِمَّا شَاهَدْتُ عِيَاناً . .

وَأَضَافَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ رَحَلْنَا عَنْ أَرْضِ سَمِيرَةَ إِلَىٰ الجَبَلِ المَخْرُوقِ فَإِلَىٰ وَادِي الكُرُوشِ ثُمَّ أَسْرَيْنَا لَيْلاً فَصَبَّحَنَا حِصْنُ فَيْدَ ، وَهُوَ حِصْنٌ كَبِيرٌ يُحِيطُ بِهِ سُورٌ وَحَوْلَهُ أَرْضٌ مَبْسُوطَةٌ يَسْكُنُهَا عَرَبٌ يَتَعَيَّشُونَ مَعَ الحَجِيجِ بِالبَيْعِ

وَالتِّجَارَةِ ، وَهُوَ نِصْفُ الطَّرِيقِ مِنْ مَكَّةَ إِلَىٰ بَغْدَادَ ، وَمِنْهُ إِلَىٰ الكُوفَةِ مَسِيرَةُ اثْنَيْ عَشَرَ يَوْماً فِي طَرِيقٍ سَهْلٍ ، بِهِ المِيَاهُ فِي المَصَانِعِ .

مِنْ حِصْنِ فَيْدَ انْطَلَقَ فِي حِمَايَتِنَا أَمِيرَانِ مِنَ العَرَبِ هُمَا الأَمِيرُ فَيَّاضٌ ، وَالأَمِيرُ حَيَّارٌ خَشْيَةَ أَنْ يُغِيرَ عَلَيْنَا الطَّامِعُونَ مِنْ قُطَّاعِ الطُّرُقِ ، وَبَلَغَا بِنَا الأَجْفَرَ ، وَهُوَ مَغْنَىٰ العَاشِقَيْنِ المَشْهُورَيْنِ جَمِيل وَبُثَيْنَةَ ، وَمِنَ الأَجْفَرِ أَسْرَيْنَا إِلَىٰ زَرُودٍ فَالثَّعْلَبِيَّةِ وَنَزَلْنَا بِبِرْكَةِ المَرْجُومِ ، وَهُوَ مَشْهَدٌ عَلَىٰ الطَّرِيقِ عَلَيْهِ كَوْمٌ عَظِيمٌ مِنَ الحِجَارَةِ ، وَكُلُّ مَنْ مَرَّ بِهِ رَجَمَهُ كَمَا يَفْعَلُونَ بِجِمَارِ النَّاسِكِ أَثْنَاءَ الحَجِّ .

تَعَجَّبَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ مِنْ هَذَا الأَمْرِ ، وَسَأَلَ مُحَدِّثَهُ ابْنَ بَطُّوطَةَ :

ـ وَفِيمَ هَذَا الرَّجْمُ لِغَيْرِ جَمَرَاتِ الشَّيْطَانِ ؟

قَالَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ قَدْ اسْتَطْلَعْتُ خَبَرَهُ يَامَوْلايَ فَقِيلَ لِي : إِنَّ هَذَا المَرْجُومَ كَانَ رَافِضِيّاً مُسَافِراً مَعَ رَكْبٍ يُرِيدُ الحَجَّ فَوَقَعَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ مُشَادَّةٌ وَمُشَاجَرَةٌ فَسَبَّ عَلَىٰ إِثْرِهِمَا صَحَابَةَ رَسُولِ الله ﷺ غَيْرَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي

طَالِبٍ. فقَتَلُوهُ رَجْماً بِالحِجَارَةِ، وتَرَكُوا خَبَرَهُ وَهُوَ دَفِينٌ بِالمَكَانِ يَرْجُمُ قَبْرَهُ الرَّاجِمُونَ حَتَّىٰ عُرِفَ المَكَانُ، وَفِيهِ بِرْكَةُ مَاءٍ، بِبِرْكَةِ المَرْجُومِ.

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ:

ـ لا فُضَّ فُوكَ يَا بْنَ بَطُّوطَةَ، فَهَذِهِ حِكَايَةٌ عَجِيبَةٌ حَقّاً.. بِمِثْلِهَا أَطْرِفْنَا..

قَالَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ ابْنُ بَطُّوطَةَ: (سَمْعاً وَطَاعةً) وَاسْتَمَرَّ فِي حِكَايَةِ رِحْلَتِهِ إِلَىٰ العِرَاقِ مُغَادِراً الحِجَازَ فِي رَكْبٍ مِنْ أَهَالِيهَا وَبَيْنَهُم أَعْدَادٌ مِنْ أَهْلِ خُرَاسَانَ وَبِلادِ العَجَمِ:

مِنْ بِرْكَةِ المَرْجُومِ سِرْنَا إِلَىٰ المَشْقُوقِ، فَالتَّنَانِيرِ، فَالهَيْثَمَيْنِ، فَالعَقَبَةِ، فَوَاقِصَةَ، فَمَنَارَةِ القُرُونِ، فَالعُذَيْبِ وَالعُذَيْبُ وَادٍ مُخْصِبٌ فِيهِ عِمَارَةٌ، وَحُوْلَهُ فَلاةٌ خِصْبَةٌ، فِيهَا مَسْرَحٌ لِلبَصَرِ. ثُمَّ نَزَلْنَا القَادِسِيَّةَ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلاّ مِقْدَارُ قَرْيَةٍ كَبِيرَةٍ، ثُمَّ رَحَلْنَا مِنْهَا فَنَزَلْنَا مَدِينَةَ مشْهَدِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ الله عَنْهُ بِالنَّجَفِ، وَكَانَ لَنَا عَنْهَا سَابِقُ حَدِيثٍ فِي الحِكَايَةِ السَّابِقَةِ، وَمَقْبَرَةُ عَلِيٍّ رَوْضَةٌ يُقَدِّسُهَا الشِّيعَةُ وَيَنْذُرُونَ لَهَا

النُّذورَ ، وَعَلَيْهَا نَقِيبٌ لِلأشْرَافِ كَانَ أَبُو غُرَّةَ المَغْرُورُ أَحَدَهُم ،وَلَهُ حِكَايَةٌ عَجِيبَةٌ وَقَفْنَا عَلَيْهَا ، وَكَانَ وَلَعُهُ بِالتَّسَلُّطِ وَالجَاهِ وَضَرْبِ الطُّبُولِ حَتَّىٰ انْتَهَىٰ أَمْرُهُ قَابِعاً فَوْقَ أَكْدَاسِ المَالِ مَوْعِظَةً وَعِبْرَةً لِمَنْ اعْتَبَرَ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ : مُخَاطِباً ابْنَ بَطُّوطَةَ :

ـ هَلْ لَكَ أَنْ تُحَدِّثَنَا بِأُعْجُوبَةِ الرَّقْصِ فِي النَّارِ ، أَوْ بِمَا هُوَ أَعْجَبُ كَمَا زَعَمْتَ ؟ ! . .

قَالَ أَبُو عَبْدِ الله ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ لَقَدْ آنَ الأَوَانُ لِهَذَا المَسَاقِ العَجِيبِ يَا مَوْلايَ ، وَكَانَ ذِكْرِي لِلبُلْدَانِ التِي عَبَرْتُ بِهَا قَادِماً مِنْ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ لِغَايَةِ اسْتِرْضَاءِ ابْنِ جُزَيٍّ الذِي لا تُعْجِبُهُ العَجَائِبُ وَالغَرَائِبُ وَالطَّرَائِفُ قَدْرَ مَا يُعْجِبُهُ عِلْمُ الأَرَضِينَ وَتَوَارِيخُ الأُمَمِ وَالأَقْوَامِ ، وَلَعَلَّنِي قَدْ سُقْتُ مِنْهَا مَا كَفَاهُ . .

قَالَ كَاتِبُ السُّلْطَانِ وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ جُزَيٍّ الكَلْبِيُّ :

ـ أَنْتَ لَمْ تَقْفِزِ الأَرَاضِيَ وَالأَنْهَارَ وَالبِحَارَ قَفْزاً ، وَلَمْ تَتَعَامَلْ مَعَ أَشْبَاحِ البَشَرِ بَلْ مَعَ البَشَرِ ، وَلَمْ أُطَالِبْكَ بِإِذْنِ مَوْلايَ السُّلْطَانِ إِلاّ أَنْ

تكُونَ مُعْتَدِلَ المَنْهَجِ فِي رِوَايَتِكَ بَيْنَ الإِطْرَافِ وَالاسْتِخْفَافِ بِالوَقَائِعِ المَلْمُوسَةِ الثَّابِتَةِ . . وَفِي جَمِيعِ الأَحْوَالِ يُسَامِحُكَ اللهُ . . قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ مُتَطَلِّعاً إِلَىٰ وَجْهِ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ وَكَأَنَّهُ يَسْتَأْذِنُهُ بِأَنْ يُوَاصِلَ الحَدِيثَ ، حَدِيثَ الرِّحْلَةِ الطَّوِيلَ ، الحَافِلَ بِالعَجَائِبِ وَالغَرَائِبِ وَالطَّرَائِفِ :

ـ لَمَّا تَحَصَّلَتْ لَنَا زِيَارَةُ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ بِمَثْوَاهُ بِالنَّجَفِ ، سَافَرَ الرَّكْبُ الذِي كُنْتُ فِيهِ إِلَىٰ بَغْدَادَ ، وَأَخَذْتُ طَرِيقِي إِلَىٰ البَصْرَةِ بِصُحْبَةِ رِفْقَةٍ كَبِيرَةٍ مِنْ عَرَبِ خَفَّاجَةَ ، وَهُمْ أَهْلُ تِلْكَ البِلادِ ، وَلَهُمْ شَوْكَةٌ عَظِيمَةٌ وَبَأْسٌ شَدِيدٌ ، وَلا سَبِيلَ لِلسَّفَرِ فِي تِلْكَ الأَقْطَارِ إِلاّ فِي صُحْبَتِهِمْ ، وَكَانَ أَنْ اكْتَرَيْتُ جَمَلاً عَلَىٰ يَدِ أَمِيرِ تِلْكَ القَافِلَةِ ، وَاسْمُهُ شَامِرُ بْنُ دَرَّاجٍ الخَفَّاجِيُّ .

خَرَجْنَا مِنَ النَّجَفِ مَشْهَدِ عَلِيٍّ ـ عَلَيْهِ السَّلامُ ـ فَنَزَلْنَا الخَوَرْنَقَ مَوْضِعَ سُكْنَىٰ النُّعْمَانِ بْنِ المُنْذِرِ ، وَبِهِ عِمَارَةٌ وَبَقَايَا قِبَابٍ ضَخْمَةٍ فِي فَضَاءٍ فَسِيحٍ عَلَىٰ نَهْرٍ يَخْرُجُ مِنَ الفُرَاتِ ، ثُمَّ رَحَلْنَا عَنْهُ فَنَزَلْنَا مَوْضِعاً يُعْرَفُ بِقَائِمِ الوَاثِقِ ، وَبِهِ أَثَرُ قَرْيَةٍ خَرِبَةٍ وَمَسْجِدٍ خَرِبٍ لَم يَبْقَ مِنْهُ إِلاّ

صَومَعَتُهُ . وَحَاذَيْنَا الفُرَاتَ حَتَّىٰ بَلَغْنَا المَوْضِعَ المَعْرُوفَ بِالعِذَارِ ، وَهُوَ غَابَةٌ مِنَ القَصَبِ يَسْكُنُهَا أَعْرَابٌ يُعْرَفُونَ بِالمَعَادِي ، لايَتَوَانَوْنَ عَنْ قَطْعِ الطَّرِيقِ ، وَبَعْدَ ثَلاثِ مَرَاحِلَ وَصَلْنَا مَدِينَةَ وَاسِطِ التِي يُقَالُ إِنَّهَا مُبْتَنَىٰ الحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ ، وَكَانَتْ وَاسِطٌ عَلَىٰ مَا شَاهَدْتُهَا حَسَنَةَ الأَقْطَارِ ، كَثِيرَةَ البَسَاتِينِ وَالأَشْجَارِ . وَأَهْلُهَا مِنْ خِيَارِ أَهْلِ العِرَاقِ ، بَلْ هُمْ خَيْرُهُمْ عَلَىٰ الإِطْلاقِ ، إِذْ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَحْفَظُونَ القُرْآنَ الكَرِيمَ ، وَيُجِيدُونَ تَجْوِيدَهُ بِالقِرَاءَةِ الصَّحِيحَةِ . وَإِلَيْهِم يَتَوَافَدُ أَهْلُ البِلادِ لِتَعَلُّمِ القُرْآنِ حِفْظاً وَتِلاوَةً وَتَجْوِيداً .

زُرْتُ المَدْرَسَةَ الوَاسِطِيَّةَ وَهِيَ مَدْرَسَةٌ عَظِيمَةٌ فِيهَا نَحْوُ ثَلاثِمِائَةِ خَلْوَةٍ يَنْزِلُهَا الغُرَبَاءُ القَادِمُونَ لِتَعَلُّمِ القُرْآنِ الكَرِيمِ وَتَجْوِيدِهِ . وَالْتَقَيْتُ فِيهَا بِشَيْخِهَا تَقِيِّ الدِّينِ وَهُو مِنْ كِبَارِ أَهْلِ وَاسِطِ وَفُقَهَائِهَا ، وَهُوَ صَاحِبُ فَضْلٍ وَإِحْسَانٍ يُعْطِي كُلَّ مُتَعَلِّمٍ كِسْوَةً فِي السَّنَةِ ، وَيُجْرِي لَهُ نَفَقَتَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، وَيَقْعُدُ هُوَ وَإِخْوَانُهُ وَأَصْحَابُهُ لِتَعْلِيمِ القُرْآنِ الكَرِيمِ .

شُغِلَ مُعْظَمُ مَنْ فِي قَافِلَتِي بِالتِّجَارَةِ خَارِجَ المَدِينَةِ ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَ الوَلِيِّ أَحْمَدَ الرِّفَاعِيِّ أَبِي العَبَّاسِ بِقَرْيَةِ أُمِّ عُبَيْدَةَ . فَطَلَبْتُ مِنَ

الشَّيْخِ تَقِيِّ الدِّينِ وَقَدْ تَوَثَّقَتْ بَيْنَنَا الصِّلَةُ أَنْ يَبْعَثَ مَعِي مَنْ يُوصِلُنِي إِلَىٰ الْقَرْيَةِ مَوْضِعِ الْقَبْرِ وَكَانَتْ الْقَرْيَةُ عَلَىٰ مَسِيرَةِ يَوْمٍ مِنْ وَاسِطٍ فَبَعَثَ مَعِي ثَلاثَةً مِنَ الحَرَسِ وَالأَدِلاَّءِ ، هُمْ مِنْ قُطَّانِ تِلْكَ الجِهَةِ ، وَحَمَلَنِي عَلَىٰ فَرَسٍ لَهُ .

خَرَجْنَا ظُهْراً وَوَصَلْنَا فِي ظُهْرِ اليَوْمِ الثَّانِي إِلَىٰ الرِّوَاقِ ، وَهُوَ رِبَاطٌ عَظِيمٌ فِيهِ آلافٌ مِنَ الفُقَرَاءِ ، وَصَادَفْنَا بِهِ قُدُومُ الشَّيْخِ أَحْمَدَ كُوجَكْ حَفِيدُ أَبِي العَبَّاسِ الرِّفَاعِيِّ صَاحِبِ الضَّرِيحِ . وَقَدْ قَدِمَ الشَّيْخُ أَحْمَدُ مِنْ مَوْضِعِ سُكْنَاهُ بِبِلادِ الرُّومِ بِقَصْدِ زِيَارَةِ قَبْرِ جَدِّهِ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ ابْنُ بَطُّوطَةَ لِمَوْلاهُ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ الفَاسِيِّ :

ـ لَمْ أَلْزَمْ ضَرِيحَ الوَلِيِّ أَبِي العَبَّاسِ الرِّفَاعِيِّ لأَكْثَرَ مِنْ قِرَاءَةِ الفَاتِحَةِ ، وَبَعْضٍ مِنْ قِصَارِ السُّوَرِ عَلَىٰ رُوحِهِ الطَّاهِرَةِ ، وَلَكِنَّ الأَمْرَ العَجَبَ يَا مَوْلايَ أَنَّهُ لَمَّا انْقَضَتْ صَلاةُ العَصْرِ ضُرِبَتْ الطُّبُولُ وَالدُّفُوفُ ، وَأَخَذَ الفُقَرَاءُ فِي الرَّقْصِ ، فَلَمَّا أُذِّنَ لِصَلاةِ المَغْرِبِ اقْتَدَيْنَا جَمِيعاً بِالشَّيْخِ أَحْمَدَ الرِّفَاعِيِّ ، وَفَرَغْنَا مِنَ الصَّلاةِ فَبُسِطَ أَمَامَنَا سِمَاطٌ طَعَامُهُ مِنْ خُبْزِ

الأَرُزِّ وَالسَّمَكِ وَاللبَنِ وَالتَّمْرِ ، فَأَكَلَ النَّاسُ وَاجْتَمَعُوا حَوْلَ شَيْخِهِم وَأَخَذُوا بِالذِّكْرِ ، وَالشَّيْخُ أَحْمَدُ قَاعِدٌ عَلَىٰ سَجَّادَةٍ جُلِبَتْ لَهُ مِنَ الحَضْرَةِ ، وَهِيَ سَجَّادَةُ جَدِّهِ المَذْكُورِ الوَلِيِّ المَشْهُورِ مِنْ أَوْلِيَاءِ الله .

وَبَعْدَ الذِّكْرِ الحَمِيدِ لِلمَوْلَىٰ تَعَالَىٰ تَشَنَّفَتِ الآذَانُ بِسَمَاعِ القُرْآنِ ، وَنَفَرَ مِنْهُم جَمْعٌ غَفِيرٌ إِلَىٰ ظَاهِرِ المَزَارِ وَنَفَرْتُ مَعَهُم لِغَايَةِ الاطِّلاعِ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ، فَإِذَا بِهِم يُنْزِلُونَ أَحْمالاً مِنَ الحَطَبِ مِنْ فَوْقِ ظُهُورِ الجِمَالِ لَمْ أَدْرِ مَا يَصْنَعُونَ بِهَا .

وَبَعْدَ أَنْ صَلَّيْنَا العِشَاءَ خَلْفَ إِمَامِنَا الشَّيْخِ أَحْمَدَ الرِّفَاعِيِّ حَفِيدِ أَبِي العَبَّاسِ قَعَدْنَا لِلذِّكْرِ وَالسَّمَاعِ وَكَانَتْ نَفْرَةٌ ثَانِيَةٌ إِلَىٰ ظَاهِرِ المَزَارِ فَقَامَ الفُقَرَاءُ الرِّفَاعِيَّةُ بِتَأْجِيجِ الحَطَبِ نَاراً مُشْتَعِلَةً وَدَخَلُوا فِي وَسَطِهَا يَرْقُصُونَ ، وَمِنْهُم مَنْ يَتَمَرَّغُ فِيهَا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يأْكُلُهَا بِفَمِهِ ، وَمَازَالُوا كَذَلِكَ حَتَّىٰ انْطَفَأَتْ النَّارُ وَآلَتْ إِلَىٰ رَمَادٍ بَارِدٍ . وَطَافَتْ مِنْ حَوْلِنَا طَائِفَةٌ مِنْهُم وَقَدْ أَمْسَكَ كُلٌّ بِحَيَّةٍ عَظِيمَةٍ لَمْ أَرَ مِثْلَهَا فِي الأَفَاعِي . فَإِذَا بِهِ يَعَضُّ عَلَىٰ رَأْسِهَا بِأَسْنَانِهِ حَتَّىٰ يَقْطَعَهُ بِلا خَوْفٍ وَلا تَرَدُّدٍ وَلا وَجَلٍ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ :

ـ الله . . الله . . لَقَدْ بَرَرْتَ بِوَعْدِكَ يَا أَبَا عَبْدِ الله فَحَدَّثْتَنَا بِالعَجِيبِ وَهُوَ الرَّقْصُ فِي النَّارِ ، وَبِمَا هُوَ أَعْجَبُ وَهُوَ قَضْمُ رُؤُوسِ الأَفَاعِي . . ذَلِكَ مِمَّا لا يُنْسَىٰ مِنْ كَرَامَاتِ الطَّائِفَةِ الأَحْمَدِيَّةِ الرِّفَاعِيَّةِ الصُّوفِيَّةِ . . قَدَّسَ الله سِرَّ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ . . آمين .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ مُؤَيِّداً مَوْلاهُ السُّلْطَانِ بِغَمْزَةٍ خَفِيَّةٍ :

ـ النَّارُ وَالأَفَاعِي ، مِنْ أَعْجَبِ الأَعَاجِيبِ فِي حِكَايَتِهَا مَعَ الصُّوفِيَّةِ الأَجِلاَّءِ . .

☆☆ ☆☆ ☆☆

☆☆ ☆☆

☆